

## الأماكن الهادئة وبرامج القراءة

سؤال: إن الإنسان المعاصر يضيق صدره في خضم أنواع وأنواع من ضوضاء الحياة ومشاغليها اليومية، فكلما وجد الفرصة سانحة بحث عن مكان هادئ وشرم منعزل، وإن القلوب المؤمنة لترغب في الاستفادة من تلك الأماكن الهادئة من أجل حياة القلب والروح؛ فما الأمور التي يجب الانتباه إليها حتى نستطيع الاستفادة الكاملة من برامج هدفها تحقيق هذه الغاية؟

الجواب: لكلِّ منّا مجموعة من الوظائف في الحياة الاجتماعية يجب عليه أدائها؛ والواقع أن على المؤمن أن يُخالط الناس ويتعايش معهم إن كان يريد نفعهم وتوجيههم إلى أفق معين، وإرواء أرواحهم بما لديه من قيم؛ أجل، على من يؤمن بالله وباليوم الآخر إيماناً حقيقياً أن يخالط الناس وأن يكون كبوصلة القبلية يرشد من حوله إلى قبله الحق والحقيقة دائماً، يقول مفخرة الإنسانية ﷺ: "الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"<sup>(٨٣)</sup>؛ ولهذا أرى أن العزلة الدائمة والخلو المستمرة معناهما التنصل من المجتمع ومن الوظائف الاجتماعية، فأظن بناءً على هذا أن من يهرب من تلك الوظائف يَأْثِمُ، حتى وإن كانت عزلته لنيل الكمالات والفيوضات الشخصية؛ لأن الأصل في الإسلام هو مصاحبة الحق بين الخلق، والسعي لخدمة الإنسانية.

نعم، إننا نواجه ما نكره خلال مخالطة الناس لتحقيق غاية عُلوية؛ حتى إننا قد نمشي في الوحل بلا قصد فتتلوث ملابسنا من باب عموم البلوى؛ أجل، قد تتلوث عيوننا ونحن في الحياة الاجتماعية، وتتدفق الشوائب إلى آذاننا دون أن ندرك، فيتعكر عالمنا الداخلي بعدة ملوثات.

ومن يصبر على كل هذه السلبيات في سبيل غاية مثالية سامية يحتاج أحياناً إلى العزلة في مكانٍ نقيٍّ يستنشَق فيه الأكسجين حتى يستوفي حاجته منه، ويستعيد طاقته هناك ليتنقَّى مما علق به من أوساخ، ويَطْرَح ما أصابه من القدر؛ وأعتقد بأن برامج المذاكرة والقراءة في إطار غاية كهذه تعدّ من ضروب العبادة.

ثمة أمر يتعيّن الانتباه إليه في هذه النقطة: تلك الأماكن الهادئة والشروع المنعزلة التي يتطلب الوصول إليها تكبُّدَ مشاقٍّ ونفقات كثيرة ينبغي أن يُستفاد منها، وأن لا تُضيع منها لحظة واحدة، وأن تُعمر بفعاليات القراءة المنتظمة، وتُحيا بالأوراد والأذكار؛ أجل، يجب أن تُؤلَّف سمفونيات وجوقات موسيقية من الأذكار والتسبيحات التي تتفجر من القلوب وتهزّ الأرض والسماء، حتى يهَمَّ سُكَّان المَلَأِ الأعلى بالمشاركة فيها.

### مناخٌ منفتحٌ على الرُّوحانيّات

في مخيمات القراءة القديمة التي تُقام في أشهر الصيف كان الأصدقاء ينزّون ليلاً هنا وهناك يتلون القرآن ويبتهلون بالأدعية، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في نفسي؛ ويقرؤون في هذه المخيمات ٢٠٠-٣٠٠ صفحة يومياً حول الحقائق الإيمانية، ويتذكرون موضوعات شتى.

والحياة في هذه المخيمات متواضعة جداً، فهم يرددون على الأرض فوق حصير، وأنا الفقير أطهو الطعام وأقدمه لهم.

وذاث يوم زارنا شخص مرموق، فلما رأى ما يجري في ظل هذه الظروف العسرة قال: "لا أظن أن في الأرض الآن مكاناً تسوده الروحانية كهذا المكان"، ثم عاود المجيء في العام التالي.

وعلىنا في هذه الأجواء النقية أن نحاسب أنفسنا ونرصد تقصيرنا في أعمال الخدمة، وأن نحسب المسافة بين ما نحن عليه وما ينبغي أن نصل إليه، وأن نتخلى عن اللذات، ونتجرد من الحيوانية، ونطرح القاذورات البشرية جانباً، ونعزم السفر على محور حياة الروح، ونسعى للانفتاح على الروحانيات.

وأنوّه هنا بأمر مهم:

كنت أفكر في أيام المخيمات أن أوصي إخواني بمائة ركعة كل ليلة، ثم خشيت أن يكون هذا تكليفاً بما لا طاقة لهم به، لكن من ينظر في سيرة العظماء يجدهم يصلّون مائة ركعة كل ليلة حتى في طفولتهم.

فعلى من شهد مثل هذه المخيمات والبرامج أن يصلّي مائة ركعة كل ليلة إن أمكن، وأن يستغلّ تلك الليالي التي تفيض بالأسرار والأحزان بالدعاء والاستغفار وقراءة القرآن والأذكار.

### مؤلفات مؤلفة غلبت عليها الإلفة

لو أن أهل المخيم قرؤوا ٣٠٠ صفحة يومياً؛ حتى يتسنى لهم حسن الاستفادة من برامج الاسترواح التي يمكن تسميتها "العزلة المؤقتة"، فإذا كان البرنامج ١٥ يوماً، فسيقرأ الفرد ٤٥٠٠ صفحة؛ فإن قام بذلك البرنامج مرتين سنوياً قرأ عدداً كبيراً من الكتب التي تبحث في قيمنا الذاتية.

ومن المفيد جداً التخلص من الرتابة، والاشتغال بالقراءة المقارنة بين هذه المؤلفات النفيسة والمؤلفات الأخرى؛ وتحقق هذا بالطبع رهناً بموافقتهم جميعاً.

وهذا الأمر سيُجهد مَنْ لهم الريادة في عالم القراءة والمذاكرة حتى يأتي يوم نتخلص فيه من الإلف والطرز القديم للقراءة.

وليعلم أن الناس يتشكلون تبعاً لرؤادهم، فإن غني الرُّوَاد بهذا الأمر وألحوا على تطبيقه تأسّى بهم الأتباع؛ فيا للأسف لقد استولت علينا وأسرتنا حالة عقيمة، إنها القراءة العابرة لهذه المؤلفات القيّمة، والمروور عليها مرور الكرام دون إجهاد النفس في فهمها بعمقها الحقيقي؛ وذلك لأنه لم يتكون عندنا منهج قراءة يعتمد على المقارنة والمحاكمة العقلية.

كنوز من جوهر وياقوت وزبرجد قضى عليها الإلف، وأعتقد أن هذا الأمر قد يُفضي إلى امتعاض أصحاب هذه المؤلفات القيّمة مِنّا.

### مسألة أخيرة:

إن تحقيق مثل هذا الصفاء والنقاء -ولو مؤقتاً- في مكان هادئ كأنه "صُوبَة" صيانة تصوننا في حياتنا الاجتماعية القادمة.

والحق أنه منذ أن تشرّف مجتمعنا باعتراف الإسلام لم يتلخّص بمثل هذه القذارة التي نراها اليوم، فالشوارع والأسواق وصحون المعابد والمؤسسات التعليمية ملطخةً بالنجاسة؛ لذا فإن التخلص من هذه الأدران، والتطهر في مكان طاهر، والإحساس والابتهاج بالطهر مرة أخرى، أمور لها أهمية بالغة في مضيّ الإنسان في حياته على نهج طاهر قويم.

إن اللجوء إلى العناية الإلهية بالأدعية والأذكار مصدر قوة يصون الإنسان ويرعاه، يقول تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٥٢/٢)،

فهذه الآية تشير إلى أننا إذا ذكرنا الله بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ذَكَّرنا هو بعنايته عند المصائب وانقطاع السبل، وتشير هذه الآية أيضًا إلى ما يلي: "تَوَجَّهوا إِلَيَّ بفقركم وعجزكم، أُوَيِّدكم بحولي وقوتي"؛ وإننا لنستشعر مدى تجلّي اللطف الربّاني في هذا التوجه الإلهي الذي أتى على صورة العقد، وكأن ربنا ﷻ يتنزل إلى مستوانا ويعهد إلينا عهدًا فيقول لنا: "افعلوا لي هذا، أفعل لكم ذاك".

ومجمل القول أننا جميعًا بحاجة ماسّة إلى مثل هذه العزلة المؤقتة حتى يكونَ بوسعنا تنقية أعيننا وآذاننا وألسنتنا من الذنوب والآثام، وتركيزَ قلوبنا كي نتجدد، والمهم في مثل هذه اللقاءات أن تركز العقول على قراءة الكتب، والقلوبُ على الأدعية والأذكار، وأن نعفّ عن الخوض في أمور تافهة، وألا نخوض في اللغو ولهو الحديث، وأن يكون كل كلامنا في الأمور السامية.



## الحماسة والولاء

سؤال: ما الأمور التي ينبغي أن نراها حقّ رعايتها عند ذكرنا لعظماء عرفنا بهم الحقّ والحقيقة، فنحن نحترمهم ونحبهم حبّاً جمّاً؟

الجواب: إن القلوب المؤمنة بينما تسعى وتجهّد كي تُودّع إلهامات أرواحها في صدور مخاطبيها قد تضطر إلى ذكر جماليات بيئتها التي تعيش فيها، ولا بد أن يُوضع في الحسبان بشكل مطلق الشعور العامّ لمن يسيرون في خط مختلف في بيئة أخرى؛ نعم، قد يتحدث غيرنا عن جماليات شاهدها وعينوها في بيئتنا ويكتبونها وفقاً لفهمهم وأسلوبهم الخاصّ، فما ينبغي للقلب المؤمن أن تسيطر عليه الحماسة ألّبتة، إلا أن عليه ألا يبالغ قطعاً وإن تحدّث عمّن يحبهم لدرجة العشق ويحترمهم كثيراً، لا سيما إن كان حديثه عن مسائل ظنيّة أو لا تُمتّ بصلة مباشرة إلى روح الدين؛ فلنلزم الدقة القصوى في هذا، والحذر الحذر من الخوض في موضوعات كهذه.

قد يتعلق امرؤ مثلاً بالشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي تعلقاً وثيقاً، حتى إنه في حالته الروحية هذه لو كانت له ألف روح لضحّى بها جميعاً حبّاً فيه ووفاء له، ثم إنه عدا الطرق والمشارب الأخرى فللنقشبندية نفسها فروع شتى مثل: المجددية، والخالدية، والكفروية، وقد يكون بينها تنافس على نحو ما؛ والتنافس ينبغي ألا يسوقنا إلى التزاحم، بل التسابق في الحق

من منطلق "لن أتخلفَ عن إخواني"، أو قل: ينبغي أن يكون التنافس طرَـزَ حركةٍ ومنطقٍ سباقٍ منطلقًا من مبدأ "أيدخل إخواني الجنة ولا أدخلها أنا؟ عليّ أن أدخل معهم"؛ وعندما يختل التوازن في هذا الشعور أو يضيع أو يخطئ الناس في توظيفه فإنهم يختصمون، بل قد يزداد الأمر، فتتحول المنافسة إلى حسد وحقد، وهذا أمر خطير جدًّا على أهل الإيمان؛ ولهذا ينبغي للقلوب المؤمنة حتمًا ألا تربط المسألة بـ"الانتماء" المتعصب لثلاث تُهَيِّج وتثير نوازع الحسد لدى من يعملون ويجتهدون في مسارات أخرى، فلتتحكم في مشاعرها لتحقيق الوفاق والاتفاق بين المؤمنين.

### أعلى المراتب

الصدق والولاء للأشخاص ليس هو الأصل، بل الأصل الصدق والولاء للفكرة المثالية التي يحاول أولئك الأشخاص تحقيقها بكل ما أوتوا؛ وذلك أن الأشخاص تفنى والأفكار تبقى؛ وليس ثمة مرتبة أعلى من الصدق والولاء، ففي آية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (سُورَةُ النَّسَاءِ: ٦٩/٤) قُدِّمَ الصدق على الشهادة والصلاح؛ فسيّدنا أبو بكر أعلى الناس رتبةً بعد الأنبياء يُلقَّب بـ"الصديق الأكبر"؛ فليس الهدف أن نغالي فيمن نحَبّ ونحترم، بل الهدف السير ما استطعنا في طريقهم واتباعهم في كل خطواتهم.

ومن يدّعي حَبَّ شخص ما حَبَّ العاشقين، فدعواه عندي كاذبة إلا إن أخذه الوجد كلما تذكّره، وكلما صلى مائة ركعة في ليله دعا ربّه قائلاً: "اللهم احشرنني معه"، وضحى بكل ما لديه في سبيل رسالة محبوه، وهذا هو الأهم؛ وهو المعيار الذي ينبغي أن تراعيه وأنت تحاسب نفسك وتساؤلها؛ وإلا فليس لأحد أن ينفي عن أحد الإخلاص والصدق.



واعلموا أنكم إن أخذتم في الحديث عن شخص ما بملاحم حماسية فإنكم تستفزّون الآخرين دون أن تشعروا، وتسببون في تكوين جبهات كثيرة ضده؛ حتى إن المبالغة في الحديث والسلوك والتصرفات قد تستثير المؤمنين على درجات متنوعة لا أعداء الدين فحسب؛ أجل، إننا حين نضيّق واسعاً ونختزل القضية في أشخاص، نكون قد دفعنا من يخدمون الإسلام في خطوط متوازية إلى المنافسة والشحناء، وربما نهلكهم بدء الحسد؛ فأكرر القول: ليس المهمّ مدح مَنْ نحب، بل المهم هو الصدق والولاء الكامل لقضاياهم.

### عبارات فيها مبالغات ضارة تكاد تكون خيانة

وإنه لظلمٌ بين وإجحافٌ كبير أن ننسب كلّ جميل إلى الرُّواد والموجِّهين، ثم ننتههم بعبارات مبالغ فيها؛ لأن كلّ نجاح وإنجاز إنما هو إحسان ربانيّ لروح الوحدة والتعاون، فعزُّ كلّ الخدمات الإيمانية إليهم وحدهم قد يُفضي إلى الشرك بالله والعياذ بالله، وهو ظلم كبير لجهود ومساعي من جاهدوا وثابروا في سبيل تحقيق هذه الخدمات الجليلة.

أما مسألة الريادة فلا ينبغي أن ننسى أننا جميعاً إخوة، وقد يسبق بعضنا بعضاً في الدخول إلى ميدان الخدمة بجبرٍ لُطْفِيٍّ من الله؛ أي إن الله تعالى قدّر في اللوح المحفوظ مولد شخص ما قبل غيره، ولا قبل لأحد بتحديد تاريخ مولده، فلا قيمة إذاً مطلقاً لمسألة سبق واللاحق بركب خدمة الدين.

ونحن دائماً نوَقِّر كبارنا وعظماءنا امثالاً لقول نبينا ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرًا وَيُوَقِّرْ كَبِيرًا"<sup>(٨٤)</sup>؛ لكن ليس معنى هذا رفع هؤلاء الكبار

والعظام إلى درجات ينوء كاهلهم بها والغلو في الحديث عنهم، فمثلاً إن مَنْ عرف حقائق الإيمان على يدي شخص، قد يعده أحد الأقطاب، ولكن إن غالى وآثر التعبير هنا وهنالك عن مشاعره بملاحم حماسية، عُذَّ ذلك خيانة للفكرة المثالية التي كان ذاك الشخص يسعى لتحقيقها.

ولكم إخوة هاجروا إلى شتى بقاع العالم، ونجحوا في إنجاز خدماتٍ عظيمة، إلا أنَّ المبالغة -ولو بلا غرض أو هوى- في نعتهم بصفات وألقاب، ورفعهم إلى أعلى عَلَيَّين يُعَدُّ خيانة لـ "حركة المتطوعين" هذه؛ لأن هذا سيسهم في تكوُّن جبهات حسد جديدة لا تستسيغ وجودكم؛ نعم، قد يغالي في هذا الأمر مَنْ ليس له دراية بمعاييركم، وليس بوسعكم تكميم أفواه الناس، إلا أن لكم وعليكم أن تَكْفُوا عن الغلو وتَعَفُّوا عن ذكر هذه الملاحم الحماسية.

أرى أن هذا الموضوع بالغ الأهمية في مستقبل خدمة الإيمان والقرآن هذه؛ وأعتقد أنه لا بد من التنبيه والتحذير المستمر في هذا الموضوع، وإن شئتم فعُدُّوه "واجباً خِدمياً".

### التوقيع بـ "لا شيء"

عندما نلتقي بِمَنْ يبذلون خدماتهم على طُرُق ومناهج أخرى فمن الأهمية بمكان أن نبدأ كلامنا بذكر فضائل شخصيات تتبوأ منزلة كبيرة في قلوبهم، ونجلِّهم ونقدِّرهم في حديثنا؛ لأن الاحترام والتقدير يقابِلان بمثلهما، أما إن ضاق أفقكم وأخذتم تتحدثون عن منهجكم فحسب لحبكم المفرط له، فقد وسَّعت الهوة بينكم وبينهم، وأسهمتم في ردود فعل سلبية إزاء مُسلِككم؛ فعلى مَنْ أَحَبَّ مشربُهُ وتعلَّق به بحبٍّ وعشقٍ عظيم وينشد احترام الآخرين وتوقيرهم له أن يفكِّر جيداً: ما الطريق إلى

تحقيق هذا: أهو في ذكر فضائل مشربي وأصحابي أم في اتساع صدري  
للآخرين واحترامهم وتقديرهم؟

وصفوة القول أنا -معشر المؤمنين- وإن كنا في مسارات شتى  
في طريقنا لخدمة الدين، لكن كل منا يقوم بحمل جزء من هذا الكثر  
الثمين السامي.

ومن الخطأ أن يقول امرؤ: "إن هذا أو ذاك يحمل أثقل ما في هذا  
الكثر"، لأن في هذا إثارة لمشاعر التنافس والتحاسد؛ فإن كانت الحقيقة  
هكذا فسينال هذا الشخص أعظم ثواب في الآخرة بلا شك، أما إن غالينا  
في تلميع صورة من هم على منهجنا، فقد تعثرنا في أحوال الشرك بعزونا  
أفعال الرب إلى العبد، وأفسدنا روح الوفاق والاتفاق؛ فعلى من كان  
التوحيد غايتهم الأصلية وأعلنوا الحرب على الشرك ألا يفسحوا المجال  
لتسرب ذرة من الشرك إلى قلوبهم؛ فالله سبحانه ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة  
الأنعام: ١٠٢/٦؛ سورة الرعد: ١٦/١٣؛ سورة الزمر: ٦٢/٣٩؛ سورة غافر: ٦٢/٤٠)، وهو  
يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الصافات: ٩٦/٣٧)؛ فهو الخالق  
لأفعالنا، ونسبة الفعل إلى العبد كارثة كبرى ساقطها الفيلسوف الإغريقية إلى  
العالم الإسلامي، فلنبراً من هذا كله ونستمسك بالتوحيد.

ومن العوامل المهمة للوصول إلى التوحيد معايرة الإنسان نظرته إلى  
نفسه أمام الله ﷻ، وتأتي في هذا السياق مقولة الأستاذ بديع الزمان:  
"أيتها النفس المرائية، لا تغترّي بقولك: "أنا خدمتُ الدين"، فإن الرسول  
ﷺ يقول: "إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"<sup>(٨٥)</sup>، وبهذا السر عليك

أَنْ تَعْتَبِرِي نَفْسَكَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْفَاجِرَ، لِأَنَّكَ لَسْتَ مُزَكَّاةً<sup>(٨٦)</sup>؛ فَهُوَ يَضَعُ  
نَفْسَهُ مَوْضِعَهَا، وَيَعِدُّهَا مَمَرًا لِلْجَمَالِيَّاتِ فَحَسَبَ، لَا مَظْهَرًا لَهَا<sup>(٨٧)</sup>،  
بَلْ لَا يَعِدُّهَا شَيْئًا، إِنَّهُ بِهِذَا لِيُعْطِينَا دَرْسًا عَظِيمًا بِصِفَتِهِ مُوجِّهًا وَمَعْلَمًا، فَإِنْ  
كَانَتْ نَفْسُ هَذَا الرَّجُلِ الْعَظِيمِ "لَا شَيْءَ" فَعَلَيْنَا أَنْ نَرَى أَنْفُسَنَا "لَا شَيْءَ"  
فِي لَا شَيْءٍ.

(٨٦) سعيد النورسي: الكلمات، خاتمة الكلمة السادسة والعشرين، ٥٤٢.

(٨٧) انظر: سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الثامنة عشرة، ٢٤٨.

## روابط الأخوة النورانية

سؤال: ورد في "الخطبة الشامية"<sup>(٨٨)</sup> أن الجهل بالروابط النورانية التي تربط أهل الإيمان بعضهم ببعض من أخطر الأمراض التي حالت دون تطوّرنا ورقّتنا، فما هذه الروابط النورانية؟.

الجواب: حينما ألقى بديع الزمان سعيد النورسي خطبته الشامية بالجامع الأموي في دمشق كان العالم الإسلامي يتعرض لمصائب وكوارث لا نظير لها ولم يشهدها طوال تاريخه؛ فسعى الأستاذ بديع الزمان رحمه الله في مثل هذا الجو إلى البحث عن وسائل لاستثارة حميّة هؤلاء الناس الذين ركنوا منذ سنوات إلى الدعة والخمول وكأنّما أصابهم الصّدأ، وغدوا لا يصلحون لشيء، فضمّرت خلاياهم العصبية، وضعفت قابليّاتهم وقدراتهم على التحرك والنهوض من جديد، محاولاً تحريك حواسّهم الظاهرة والباطنة، المادية منها والمعنوية مرة أخرى.

وبدلاً من أن يذكرّ الناس بجو الموت بكلمات مخيّبة للأمال ومارّشات جنازية مثل المارّش الجنائزي لـ "شوبان"، نراه يترنم بعبارات قوية هادرة

(٨٨) ألقى الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي خطبة وهو في شرح الشباب باللغة العربية في الجامع الأموي بدمشق، وكان بإلحاح علماء الشام، وحضرها جمٌّ غفير من الناس يربون على عشرة آلاف شخص، تناول الأستاذ فيها مشاكل المسلمين وكشف الداء وأشار إلى الدواء وطُبعت كتاباً بعنوان "الخطبة الشامية". (المترجم)

كالأصوات التي تُطلقها الجوقات الموسيقية العسكرية قائلاً: "كونوا على أمل، إن صوت الإسلام الهادر سيصبح أعظم الأصوات وأعلاها في انقلابات المستقبل"؛ أراد بذلك أن يكون مصدر أمل للإرادات الميتة، إن الحديث وقت انبلاج الفجر عن بعض الأمور التي تبعث على الأمل وإن عُدَّ من المهارة، لكنه ليس مهارة كبيرة؛ المهارة الحقّة تكمن في القدرة على إلقاء هذه الكلمات التي تشحذ الإرادات وتُحييها في وقت لا يطلع فيه ولو فجرٌ كاذب.

### روابط الأخوة بعدد الأسماء الإلهية

أجل! قام الأستاذ بديع الزمان في هذه الخطبة التي ألقاها قبل نحو قرن من الزمان بتشخيص الأمراض التي تحول دون رقيتنا وتقدُّمنا أولاً، ثم وضع الوصفات العلاجية اللازمة لإحياء العالم الإسلامي من جديد، فكان من أعظم الأمراض التي شخَّصها: الجهل بالروابط النورانية التي تربط أهل الإيمان بعضهم ببعض، أما الوصفة الطبية التي وضعها فهي إحياء مفهوم الوفاق والاتفاق وروح الشورى من جديد.

في الواقع تكلم الأستاذ النُورسي عن هذا الموضوع في الخطبة الشامية إجمالاً، وأخضعه فيما بعد للشرح والتفصيل في "الملاحق"، و"رسالة الإخلاص" و"رسالة الأخوة"، فذكر مثلاً في "رسالة الأخوة" أن هناك روابط للوحدة والوفاق والأخوة بين المسلمين بعدد الأسماء الإلهية، وعدّد منها: "إن ربنا واحد، ونبينا واحد، وديننا واحد، وقبلتنا واحدة، ووطننا واحد..."، ثم لفت الانتباه إلى عِظَم هذا الأمر وأهميته بقوله "وهكذا واحد، واحد... إلى أن تبلغ المائة والألف".

قال النبي ﷺ: "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - (شكَّ الراوي) شُعْبَةً"<sup>(٨٩)</sup>، ويمكن أن نعدَّ هذا كناية عن الكثرة، فكلَّ شعبة من هذه الشعب ما هي إلا رابطة لا تنفصم تربط بعضنا ببعض، كما أن الحقائق التي بينها القرآن الكريم هي روابط قوية متينة تربطنا أيضًا ببعضنا.

من جانب آخر فإننا عند تناول هذا الأمر على مستوى أمة، نجد أن هناك كثيرًا من الروابط المشتركة فيما بيننا؛ حيث إننا نعيش معًا منذ زمن طويل تحت ظل وطن واحد، وفوق أرض واحدة؛ وعلى ذلك فنحن أبناء قَدَر واحد وثقافة واحدة وتربية واحدة، وقد وقعنا تحت نير ظلم واحد واضطهاد واحد واستضعاف واحد؛ ولهذا نبّه الأستاذ النورسي أنه من الظلم البين أن نقوم بسلوكيات تفضي بنا إلى الشقاق والنفاق والحقد والعداء رغم وجود هذا القدر من القواسم المشتركة التي تستلزم المحبة والأخوة.

### إرادة التخلي عن الثوابت الشخصية

إن بقاء تلك الأواصر النورانية دون أن تهين مرتبطة بتخلي كل فرد -إذا لزم الأمر- عن ثوابته واجتهاداته واختياراته الشخصية؛ وأن يعيش رغمًا عن نفسه من أجل الالتقاء عند نقطة مشتركة، ولو عبّرنا عن هذا الخصوص بمفهوم فضيلة الأستاذ نقول: إذا أمكن تحقيق الاتفاق على "الحسن" في مسألة ما، فلا ينبغي السقوط في الاختلاف في "الأحسن"؛ وبتعبير مختلف: إن كان السعي وراء "الأحسن" سوف يُوقِنا في النزاع، وجب حينئذ السكوت والاكتفاء بـ"الحسن"، ومن هذه الناحية فإنني أرى

أنه يتوجب عدم السعي إلى النزاع بين الإخوة بسبب الرغبة في الأحسن، طالما أمكنت إقامة الوحدة والتعاون حول "حَسَن"، كما ينبغي ألا تطرح على الساحة دواعي الاختلاف والافتراق؛ لأن الحق تعالى يرسل توفيقاته السبحانية مرتبطةً بالوفاق والاتفاق، فإنه وإن كان ما يُتَّفَقُ عليه "حَسَنًا" ظاهرًا فحسب، فهو في الحقيقة أحسن من الأحسن؛ ولهذا السبب فإن تحاشي استخدام قسم من المسائل الفرعية عنصرًا يثير الفُرقة أمرٌ مهمٌ جدًّا للحفاظ على روح الأخوة.

أجل، يجب على الإنسان أن يضع في حسابه أحاسيس الآخرين فيتخلى -إذا لزم الأمر- عن اجتهاداته واستنباطاته الشخصية، وبهذه الطريقة لا تُعطى الفرصة لأن تُتخذ آراءٌ خاصة بالفروع وسيلةً للاختلاف.

فمثلًا أداء الصلاة بشكل يوافق حقيقتها أمر مهم للغاية، وعلى حد قول "الإمام الألوارلي" فإن "الصلاة عماد الدين ونوره، والصلاة هي التي تُسَيِّرُ سفينة الدين، فالصلاة هي رأس جميع العبادات..."، وحقيقة الصلاة أن يتجرد المرء من نفسه، وأن يستشعر نفسه بين يدي الحق تعالى وكأنه في معراج، إذ ينبغي على الإنسان -بقدر سعة أفق عرفانه- أن يُطهِّر قلبه من كل ما سوى الله بدايةً من حين ينوي الصلاة، وألا ترى عينه أيَّ شيء غيره تعالى ألبته، ثم أن يقيم صلاته في وجد واستغراق وكأنه في بعد مختلف يشاهد تجليات مختلفة، غير أننا -بصفة عامة- أشخاص أُمِّيُّون، وإن الصلاة التي يؤديها أمثالنا شكلية وصورية غالبًا، بيد أنه ينبغي ألا يُنسى أن الإنسان لو كان يؤدي صلاته مراعيًا أركانها وشروطها -حتى وإن كانت صورية- فقد أدَّى وظيفته من حيث الظاهر، فليس من الصواب إطلاقًا استخدام أسلوب ولغة اتِّهامية للناس، بدعوى أنهم لا يؤدِّون



الصلاة بالمعنى والفحوى الحقيقي، وما يجب فعله هو قبول المسألة على حالتها هذه، حتى وإن كانت شكلية وصورية، ولا ينبغي أن نقع في الاختلاف رغبةً في الوصول إلى أعلى الدرجات وربطاً للمسألة بأقصى الغايات وأنجبها وأفضلها، وإلا فإن الإنسان وهو يبحث عما هو أفضل قد يهوي في لجة مختلف القبائح دون أن يدرك، وهذا يتسبب في قطع حفاوة الله بنا، ونظيره وتوفيقيه وعنايته ﷺ.

وهذه الملاحظات يأتي مثلها للزكاة أيضًا؛ فقد تصفون الزكاة التي تُدفع بنسبة واحد في الأربعين بأنها "زكاة البخيل" لِحَثِّ الناس على الإنفاق ولتتمكّنوا من تحريك "شعور العطاء" في القلوب، وتطلبون من الناس أن يعطوا الزكاة بمقدار واحد في العشرين، واحد في العشرة، واحد في الخمسة، ومهما كان هذا الأمر جائزاً في أسلوب الترغيب، فإن عليكم تجنّبه على الإطلاق إن كان تصرفكم بهذا الشكل سوف يفتح باباً من أبواب الخلاف ويتسبب في المنازعة والجدال، ولا بد من أن تُعتمد أحكام الدين الموضوعية أساساً في هذا.

ففي الصحيحين، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فعلمه ﷺ ما عليه من صلاة وصيام وزكاة، فقال الرجل: "لا أزيد على هذا ولا أنقص"، فقال رسول الله ﷺ: "أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ"<sup>(٩١)</sup>... فهذه إشارة إلى مسألتنا هذه؛ فإن اعتبرتم -وفق أحكامكم الشخصية الخاصة بكم- أن أقصى الغايات هي السبيل الوحيد للنجاة، أبعدتم مخاطبيكم عنكم، وحرمتهم بعض الأعمال الصالحة التي يستطيعون القيام بها، وربما تكونون قد أيقظتم لديهم الشعور بالحسد والغيرة تجاهكم، وقس العبادات والمسؤوليات الأخرى على هذا.

والخلاصة إنَّ حَثَّ الناس على الوصول إلى أفق معين أمرٌ، وحصص المسألة في دائرة معيَّنة ومستوى معين أمرٌ آخر تماماً، فإن كان لديكم أفق باعتبار حياة الروح والقلب دعوتكم الناس إلى ذلك الأفق؛ غير أن تحقيق الاتفاق في مسائل يمكن الخلاف فيها، والوقوف عند نقطة الاتفاق، هو الأمرُ الأهمُّ، ومن هذه الزاوية لزام علينا أن نبحث في كل مكان وزمان عن وسائل الاتحاد، وأن نركِّز على الوفاق والاتفاق، ونبذل كل أنواع التضحية لحماية روح الوحدة.

## إصلاح النفس وإصلاح المجتمع

سؤال: يُذكر أن مَنْ لم يستطع أن يحلّ مشكلات نفسه لا قبل له بحلّ مشكلات مجتمعه، فما هي ماهية العلاقة بين إصلاح النفس وإصلاح المجتمع؟.

الجواب: النفسُ موطن ومنبع للخصال الذميمة في الظاهر مثل الحقد والكره والشهوة والغضب، تلك التي وُضعت في جبلة الإنسان لِحَكَمٍ ومصالحٍ؛ وهي (أي النفس) آليّةٌ مهَيّأةٌ لتلقّي وساوس الشيطان وإيحاءاته وكأنّها تعمل مركزَ اتصالات له، لكن لا بدّ أن نعرف أن هذه الآليّة -في الوقت ذاته- صالحةٌ للتحوّل والرقى، بل إنّها وسيلةٌ مهمّةٌ لرقى الإنسان إلى العوالم المعنوية، ولكن أداء هذه الآليّة مهمّتها بإيجابية متوقّفة على تركيتها وتربيتها تحت رقابة القوانين السماوية، تمامًا مثلما نكبّح جَمَاحَ حصان إذا أردنا اتخاذه مَطِيّةً؛ وإلا فإن تركناها لحالها غدّت السير وراء الأهواء والرغبات، وانقادت للشهوات المادية والحيوانية، وتتبع المساوئ والشرور، وهذا يُؤدّي بالإنسان في النهاية إلى هُوةٍ سحيقةٍ ويكون مصيره الموت والهلاك.

### الطفل الذي لا ينفطه

يَصَوِّرُ الإِمَامُ البوصيري في قصيدته المشهورة حَالَهُ النفس غير المزكّاة، فيقول:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ، وَإِنْ تُقَطِّمَهُ يَنْفَطِمَ  
أَجَلَ، إِنْ فُطِّمَتِ النَّفْسُ فِي أَوَانِهَا بِطُرُقٍ تَقْنَعُهَا أُلْجِمَتْ كُلُّ رَغْبَاتِهَا  
الْجَامِحَةِ، وَلَكِنْ إِنْ تُرِكَتْ لِلْبَهِيمَةِ وَنَمَتَ تَحْتَ تَأْثِيرِ الْأَفْكَارِ وَالْمَشَاعِرِ  
السَّلْبِيَةِ تَحَوَّلَتْ إِلَى شَيْءٍ صَعْبِ الْقِيَادِ وَأَرْغَمَتِ الْإِنْسَانَ عَلَى التَّعَلُّقِ دَائِمًا  
بِرَغْبَاتِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَنَزَوَاتِهِ، وَهَذَا يُفْضِي إِلَى إِقَامَةِ حَوَاجِزٍ وَمَوَانِعَ بَيْنَ الْفَرْدِ  
وَالْحَقِيقَةِ، وَإِلَى أَنْ يَعْرِضَ حَيَاتِهِ لَخُسُوفٍ وَكُسُوفٍ.

وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَحِيلُ عَلَى مَنْ هُوَ أَسِيرٌ لِنَفْسِهِ وَيَحْمِلُ عَلَى عَاتِقِهِ مَشْكَالَاتِ  
نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ قَدْوَةً لِلآخِرِينَ يَرْشُدُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، إِذَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَحْلَلَ  
مَشْكَالَاتِ نَفْسِهِ أَوَّلًا، وَسَبِيلُ ذَلِكَ إعْطَاءُ الْإِرَادَةِ حَقَّهَا وَالتَّصَدِّي لِرَغْبَاتِ  
النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا الَّتِي لَا حُدُودَ لَهَا، وَالْاِكْتِفَاءُ بِالْمَلَذَّاتِ وَالْمَتَمُّعِ الْمَتَاحَةِ فِي  
الدَّائِرَةِ الْمَشْرُوعَةِ، وَعَدَمُ إِفْسَاحِ الْمَجَالِ لِلنَّفْسِ لَتَنْزَلِقَ إِلَى الْحَرَامِ، وَهَكَذَا  
تَتَخَلَّصُ النَّفْسُ مِنْ مَرْتَبَةِ "الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ" وَتَتَّجِهُ إِلَى مَرْتَبَةِ "اللَّوَامَةِ" الَّتِي  
تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَلُومُ نَفْسَهُ وَيَحَاسِبُهَا عَلَى أَطْوَارِهَا وَتَصَرُّفَاتِهَا، بَلْ تَرْتَقِي  
إِلَى أَفْقِ "الْمَطْمَئِنَّةِ" بِصُورَةٍ يَطْمَئِنُّ فِيهَا ضَمِيرُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُ  
وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَكَمَا يَسْتَعِيدُ الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ الضَّارَّةِ فَعَلِيهِ  
كَذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِيدَ بِهِ صَبَاحَ مَسَاءٍ مِنْ أَنَانِيَّتِهِ وَمِنْ نَفْسِهِ الَّتِي تَعْمَلُ فِي دَاخِلِهِ  
كَمَرَكِزٍ رَئِيسِيٍّ لِلشَّيْطَانِ، فَإِنْ لَمْ يَحْدَثْ هَذَا فَلَنْ تَعْدَلَ النَّفْسُ عَنْ إثَارَةِ  
الْمَشْكَالَاتِ، وَلَنْ يَتَخَلَّصَ الْإِنْسَانُ مِنْ مَشْكَالَاتِ نَفْسِهِ.

## أعظم الجهاد

قال رسول الله ﷺ لغزاة رجعوا من غزوة: "قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، قالوا: "وما الجهاد الأكبر؟" قال: "مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ"<sup>(٩١)</sup>، ففي الحديث دلالة على ما لهذا الأمر من أهمية عظيمة.

وإنَّ ورود هذا الحديث عند عودة المسلمين من غزوة بالغة الأهمية والخطورة ليساعدنا على المقارنة بين جهاد النفس ومحاربة العدو، كما أن له مغزى عميقاً كبيراً، حيث إنه قيل في وقتٍ يشعر فيه الجميع بنشوة الغلبة والنصر.

قد يُقال كلامٌ مهمٌّ ولكن لا يُراعى فيه الحالة النفسية للمخاطبين، فلا يبعث في القلوب تأثيراً على المستوى المطلوب، فذكرُ هذا الكلام في هذا المقام له أهمية بالغة في خلاص المسلمين من نشوة النصر التي يحتمل أن يغرقوا فيها، فلقد رغب ﷺ من وراء هذا الكلام إلى أن يتصدى الصحابة ﷺ للأفكار السلبية التي قد تتسلل إلى نفوسهم وهم يدخلون المدينة منتصرين غالبين.

والحق أننا نحسن الظن بسادتنا صحابة رسول الله ﷺ، امتثالاً لقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْحَشْرِ: ١٠/٥٩)، ولكن مفخرة الإنسانية سيدنا محمداً ﷺ لعله أراد الوقوف منذ البداية في وجه بعض الأفكار السلبية التي قد تتسلل إلى نفوسهم، مراعيًا في ذلك حالتهم الروحية؛ لأنهم بشر وأنه ﷺ القائم بتربيتهم وتركيتهم.

ففي الطريق إلى غزوة حنين خطر ببال بعض المسلمين فكرة "لن نغلب اليوم من قلة"، فمُنُوا في بداية المعركة بهزيمة مؤقتة، ثم تحول الإِدْبَار إلى إقبال بما بذله رسول الله ﷺ من شجاعة وإقدام.

وإذا ربطنا هذا بموضوعنا نقول: أجل، قد يقاسي الناس أحياناً في جهادهم في سبيل الحق، ويتعرضون لمتاعب وصعوبات خطيرة، بل قد يلجؤون إلى التضحية بأموالهم وأنفسهم في هذا السبيل، فينصرهم الله ويؤيدهم بفتوحات مادية ومعنوية، فأهمُّ شيءٍ حينئذ أن يتصدى الإنسان منذ البداية لبعض الأفكار والمشاعر السلبية التي قد تتحرك في داخله لحظة عودته منصوراً مظفراً، إن ما يقوله الأستاذ بديع الزمان معيار مهم في هذا الصدد: "يا نفسي المرائية! لا تغترّي قائلة: إنني خدمتُ الدين، فإن الحديث الشريف صريحٌ بـ"أَنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ"<sup>(٩٢)</sup>، فعليك أن تُعَدِّي نفسك ذلك الرجل الفاجر، لأنك غير مزكاة"<sup>(٩٣)</sup>، إذ أثناء مثل هذا الفوز تزعزع حتى بعض أولياء الله الصالحين فدارت أعينهم، ناهيك عن الناس العاديين.

فلو أن إنساناً لم يتعهد نفسه بتربيتها وتزكيتها ولم يتمم أخلاقياتها فهذا يعني أنه قد فقد الكثير، ولم يحظ بالسعادة الدنيوية والأخروية؛ لأن الإنسان بنفسه لا بجسمه، يقول رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"<sup>(٩٤)</sup>، عندما يخشع القلب ينعكس هذا على الأحوال والأفعال، وقد لفت النبي ﷺ الأنظار إلى هذا فقال: "لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ"<sup>(٩٥)</sup>.

(٩٢) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ١٨٢؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٧٨.

(٩٣) سعيد النورسي: الكلمات، خاتمة الكلمة السادسة والعشرين، ٥٤٢.

(٩٤) صحيح مسلم، البر والصلة، ٣٤.

(٩٥) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول، ٢١٠/٣.

وعلى ذلك فمن الضروري أن يتوجه الإنسان إلى إنسانيته ويجادل نفسه ويحلّ المشكلات التي بينه وبين نفسه، ولأهمية هذا الأمر وصف الرسول ﷺ جهاد النفس بـ"الجهاد الأكبر".

### نَعْمَ تَصْبِحُ نَقْمًا

إن النفس كما تخدع الإنسان بالذنوب؛ فإنها ربما تقلبه رأساً على عقب بالنعم التي تفيض على الشخص كالمطر زخاً، وعلى سبيل المثال فإن القرآن الكريم يخبر بأن قارون رغم أنه كان من قوم سيدنا موسى عليه السلام قد انقلب حاله رأساً على عقب بسبب الثروة والإمكانيات التي امتلكها؛ وذلك أنه لم يؤمن بالله إيماناً صحيحاً، وعجز أن يحل المشكلة في نفسه، ورغم أنه كان يبدو مؤمناً إلا أنه ما استطاع أن يحول إيمانه إلى يقين، وما تمكن من التوجه إلى أفق الإذعان، أي إنه لم يستطع أن يحول المعلومات النظرية إلى المعرفة بواسطة العمل، وما وصل إلى علم اليقين، وما تسنى له أن يدنو من عين اليقين على وجه الخصوص؛ ولذلك قال يوماً: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: ٢٨/٧٨) فأصبح من الخاسرين نتيجة اغتراره بالإمكانيات الدنيوية رغم أنه كان إلى جانب موسى عليه السلام، وبالقرب منه، يعيش بين قومه.

والسامري أيضاً كان من قوم موسى عليه السلام، وكان إنساناً يُجيد الحديث، وله مهارات مختلفة، لكنه أيضاً استخدم تلك المهارات الموهوبة له في صنع صنم على صورة عجل، فانقلب رأساً على عقب وخسر، وذلك أنه عاش حياته حتى آخرها منفياً شريداً كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ (سُورَةُ طه: ٩٧/٢٠).

والملاحظ أنه حين لا تُحَلُّ المشكلة في نفس الإنسان، فإن نعمة الله ذاتها تتحول إلى مصيبة على الإنسان، وبتعبير مختلف؛ إن الأشياء التي تبدو نِعَمًا قد تتحول إلى نِقَمٍ على الإنسان وهو لا يشعر، بل إن المعرفة تصبح نِقمة وبليةً عليه، والقدرة والتمكن من الإدارة يستحيل إلى بلية، وحفاوة الناس به تُضحى بلية، كما يصير شغل مناصب معينة أيضًا بلية... أجل، إن الإنسان حين يمتلك تلك الإمكانيات ربما يشرد عن طريق حضرة روح سيد الأنام ﷺ، ويسلك طرق أمثال الفرعون رمسيس، وأموفيس، وابن شمس.

وأريد أن أوضح الموضوع أكثر عَبْرَ منقبة يُروى أنها وقعت في زمان موسى ﷺ، والحقيقة أنه يمكن النقد في أصل وثبوت هذه النوعية من المناقب، غير أن المهم في المناقب هو العبرة والفائدة منها، لا أصلها وثبوتها، يعني أن المهم هو المعنى الذي تفيده لنا المنقبة وما سنأخذه منها من دروس؛ نعم، يُحكى أن سيدنا موسى ﷺ رأى في طريقه إلى جبل الطور واحدًا توارى في الرمال لأنه لم تكن لديه ثياب تستره، فرجا ذلك الشخصُ موسى ﷺ أن يدعو الله تعالى له كي يكون ذا مال، فلما ذكر موسى ﷺ طلب الرجل بين يدي الله تعالى، أُخبرَ بأن هذه الحال هي الأفضل لذلك الرجل، ونقل موسى ﷺ هذا الخبر إلى الرجل، غير أن الرجل ألحَّ في طلبه بدعوى أن أشياء أخرى مختلفة قد تكون خيرًا أيضًا، وفي النهاية أمر الله تعالى موسى ﷺ أن يساعد ذلك الرجل، فاشترى الرجل بعد فترة زمنية شاةً بمساعدة موسى ﷺ، فتزايدت الشياه عنده في زمن قصير، وصار الرجل صاحب قطعان من الأغنام، ومرت السنون والأيام ورأى سيدنا موسى ﷺ جمعًا في مكان ما وهو ذاهب إلى جبل الطور أيضًا، وحينما دنا منهم وسألهم عن الحادثة، قالوا له: "كان ثمة رجل فقير جدًا ههنا، وبعد مدة أعطاه الله تعالى إمكانيات واسعة، غير



أن هذا الثراء لم ينفعه، إذ بدأ يشرب الخمر، فشرب ذات يوم من الأيام وغاب عن وعيه، وبادر أحد الناس بالعراك، فقتله، والآن يُجرى القصاص منه".

والحاصل أن الإنسان الذي لا يحلّ مشكلاته في نفسه، كثيرًا ما يجعل -كما ثبت في التاريخ وفي يومنا الحاضر- كلَّ واحدة من التوفيقات المعنوية والمادية وسيلةً لهلاكه، فإن كانت "النعمة" تُبعد الإنسان عن الله تعالى وتسوقه إلى الغفلة، فإنها ليست نعمةً وإنما هي نقمة في شكل نعمة؛ أجل، ينبغي أن يُعلم جيّدًا أن الشيء الذي يُبعد الإنسان عن الله تعالى -حتى وإن كان هذا فتح إسطنبول- هو بليّة سلّطها الله على الإنسان، تُوقعه في أكبر خسارة حيث مأمَلُ الفوز، والطريق للوقاية من كل هذه المخاطر هو عدم التخلي في أي وقت عن الجهاد الأكبر، أي مجاهدة النفس، والتنبّه والتيقُّظ الدائم في مواجهة حيل النفس ومكائدها.



## احترام المقدسات

سؤال: ما هو السلوكُ والموقفُ الإيماني الذي ينبغي لنا أن نتبعه تجاه محاولات التطاول على "الدين والقيم المقدسة" والإساءة إليهما؟.

الجواب: إنَّ من أهم الفضائل التي يحثُّ عليها ديننا الحنيف أن يتحلَّى الإنسان بالصبر والأناة إزاء أيِّ محاولة تستهدف الإساءة إلى شخصه أو النيل منه، وألاً يقابل السيئة بمثلها ما وسعه ذلك، وأن يفتت ويذيب ما يُلقى عليه من أحجار بجوِّه السمح، مثلما تتفتت وتذوب النيازك التي تصطدم بالغلاف الجوي، بيد أن الله ﷻ حقاً، ولرسول ﷺ حقاً، وللقرآن الكريم حقاً أيضاً؛ فإن تعرضت تلك الحقوق لأيِّ إهانة أو صفاقة فليس للفرد حينذاك أن يعفو أو يصفح أو يغضَّ الطرف عن هذه الإساءات أو يتجاهلها أو ألاَّ يحرك ساكناً تجاهها؛ لأن المسألة حينئذٍ ليست مسألة شخصية، لكنه -ورغم هذا- عليه أن يتخذ موقفاً يناسب شخصيته ويليق به كما هو الحال في كل أمر، وأن يتحرك وفقاً لما تستلزمه هويته الإسلامية، وأن يعبر عن ردِّ فعله بأسلوب إيماني، ولا يتنازل أبداً عن أسلوبه؛ لأن أسلوب الإنسان شرفه.

### من أراد أن يُحترم فعليه أن يحترم

إننا اليوم -مع الأسف- نشهد أنواعاً مختلفة من البذاءة؛ فكل يوم تقع عدة حوادث منشؤها الغلّ والحقد والكراهة، تَرُدُّ من هنا وهناك سلوكيات غير لائقة وكلمات مستهجنة، فأحياناً تقع حادثة مفعجة في مكان ما، وقبل أن يُعرف فاعلها نجد شخصاً يقول بوازع من كره وحقد دفين في صدره: "لا بدّ أن نُجهز على المسلمين جميعاً"، ثم يأتي آخر ويوجّه إهانة أخرى للمسلمين، وفي مكان آخر تُعلّق لافتات تثير حفيظة الناس، لكن لا يخطر على بال أحدٍ في خضمّ هذه الفوضى والبلبلة أن التناول على الذات الإلهية وأسمائها الحسنى وصفاتها العليا أو على الأنبياء أو الملائكة الكرام يؤدي ويجرح مشاعر جميع من يؤمن بهذه القيم المقدسة، بل إنّ المساس بقضايا متعلقة ببعض المقدسات -كالبعث بعد الموت والسعادة الأخروية- قد يُزعج أيضاً أتباع الديانات الأخرى؛ لأن بعض الأديان الأخرى بأصلها تقرّ أيضاً بهذه الأمور الإيمانية.

فإذا ما أشركنا في هذا الأمر أتباع الديانات الأخرى ممن يؤمنون بالآخرة مع المسلمين الذين يبلغ عددهم ملياراً ونصف مليار مسلم تقريباً، نجد أن العدد يبلغ في مجمله أربعة أو خمسة ملايين من البشر؛ ولذلك إن حاول شخص أن يتوقع أو يتفوّه بكلمة نابية إزاء قيمة مقدسة يجلّها ويقدرها الآن حوالي أربعة أو خمسة ملايين إنسان وتنبوا منزلة خاصة في صدورهم، فيكون بذلك قد أهان وتناول بوقاحة على خمسة ملايين إنسان.

ومن ثم لا بدّ لذلك الإنسان الذي سلك هذا السلوك الفظّ الوقح أن يستعدّ لاستقبال تناول الآخرين عليه وإهانتهم إياه؛ أجل، عليه ألا يتأذى

من وخزة الإبرة التي طالته منهم، وهو الذي طعن برمح إهانتته صدور ما يقرب من أربعة أو خمسة ملايين إنسان بتلاعبه بمقدساتهم، إن إهانتكم للآخرين -أيًا كانوا- تُثير فيهم حمية الإهانة والإساءة إليكم، كما أنّ توقيير الآخرين يحرك فيهم شعور الاحترام والتوقير لكم.

فمثلاً قد ترى إنساناً لم يدرس الفلسفة ولم يقرأ شيئاً منها ينتقد مذهباً فلسفياً، فيجعل من نفسه أضحوكة للآخرين، كما أنه بفعله هذا يُسيء الأدب مع العلم والمناهج العلمية، إن معظم المعلومات الفلسفية التي لم تصحّح في ضوء القواعد القرآنية الراسخة تخبط الفكر في نظرنا، لكن انتقاد تيار فلسفي بأسلوب مُهين يجعل المتكلم أضحوكة ليس إلّا، وعلى نفس الشاكلة فلو أنّ إنساناً لا صلة له بالموسيقى تكلم جزافاً عن المقامات الموسيقية وكأنه موسيقي كبير لعرض نفسه للسخرة، فضلاً عن أنّ كلاً من هذه الأمور التي ذكرناها قد ينجح ويتخصص فيها كثير من الناس بشيء من السعي.

واليوم نجد من لا يحيط علماً بالقرآن والسنة، ولا دراية له بدينٍ أحدث انقلاباتٍ عظيمة في تاريخ العالم وتحققت على يديه نهضة مذهلة شملت رقعة كبيرة من الأرض حتى القرن الخامس الهجري، نجد هذا الشخص يتكلم بجهل عن هذا الدين وأتباعه بعبارات مهينة، ويعزو ما يقوله إلى حرية الرأي والتعبير، بيد أن كلام إنسان في غير مجال تخصّصه -خصوصاً في عصرنا هذا الذي علا فيه شأنُ التخصص- يُعدّ إساءة إلى هذا المجال وإلى نفسه، ثم إلى العقل السليم والمنطق السليم والمحاكمة السليمة والضمير السليم، ومن ثمّ فعلى ذلك الشخص الذي تصرّف بهذه الوقاحة ألا يتكلم جزافاً وألا يتضجر من ردود أفعال الجماهير العاطفية؛ لأنه هو البادي بالكلام غير اللائق والمبادرُ بالأسلوب غير المناسب، أما من تعرضوا لتلك الوقاحة فهم جماعة كُثُر يتراوح

عددهم من أربعة إلى خمسة ملايين إنسان، ومن المحتمل دائماً أن تجد بين مثل هذا الجَم الغفير من يتحركون بدافع من مشاعرهم وعواطفهم الانفعالية الجياشة.

### إن كان بيتكم من زجاج...

ومن جانب آخر فإنه يتوجب علينا -نحن القلوب المؤمنة- أن نكون دائماً أكثر حساسية في أقوالنا وتصرفاتنا وسلوكياتنا، وأن نحسب جيداً قبل أن نتفوه -ولو بكلمة واحدة- عواقب تلك الكلمة، وألا نتسرع في البوح بأمور تخص قلوبنا؛ أجل، يلزم ألا يُنسى أبداً أن ما نلفظه من أقوال يمكن حملها على معان أخرى من ذوي النوايا السيئة، كما ينبغي أن نضع مشاعر المخاطبين في الحسبان عند الحديث، فإن كان بيتكم من زجاج فلا ترموا بيوت الناس بالحجر، وإلا فقد تسببتم في تخريب بيتكم بأيديكم.

وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا الهدي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٠٨/٦)؛ أجل، إنكم إن تسبوا آلهة الآخرين؛ لاتهم، ومنااتهم، وعُزَاهُمْ، وإسافهم، وناثلتهم... إلخ، فإنهم سيبدوون هم كذلك في سب من تقدسونه، ولا يوجد في الكتاب، ولا في السنة، ولا في اجتهادات السلف الصالحين أمرٌ أو توصيةٌ ما بسبِّ أو ثائن يعبدها عبادة من دون الله، ومن ثم فإن عليكم أن تعبروا عن الصواب في كل وقت: وذلك بأن تتحدثوا عن التوحيد، وتُعلوا شأنه دائماً؛ هذه مسألة أخرى، لكن ليس من مسؤولية المؤمن ولا من مهمته تحقير الأشياء التي لا قيمة لها في نظره أو تزييفها.

فيا ليتنا نقول كل ما نقوله ونكتب كل ما نكتبه ونفعل كل ما نفعله وفقاً لمعايير القرآن الكريم والسنة النبوية! لأن نتائج بعض السلوكيات التي تحدث عند الفراغ الحسي قد تكون -في غالب الأحيان- مضرّة جداً لقيمتنا.

وعلى ما يُتذكر فقد اعتُدي على كتابنا العزيز القرآن الكريم في أحد الأماكن في وقت قريب؛ واعتُدي في أعقاب هذا على بعض الكنائس في مكان آخر، وخُزِبَ مبانٍ؛ نعم، إن الهجوم على القرآن الكريم وقاحةٌ وعدمُ اتزان، إلا أن القيام بتخريب الكنائس كردّ فعل على هذه الوقاحة نوعٌ من عدم الاتزان أيضاً.

ولهذا السبب ينبغي للإنسان قبل أن يلجأ إلى أي تصرف وسلوك يؤذي الآخرين -أيّاً كان هؤلاء الآخرون- أن يحسب حساباً جيداً كيف يرتد هذا التصرف عليه، ثم يقول ما سبقوله أو يفعل ما يريد فعله، يتعين على من يتعرضون للازدراء أن يضعوا ردود أفعالهم في خطٍ إيجابي دائماً، وأن يختاروا طريق إزالة القبائح عبر استخدام السبل العلمية والقانونية، وألا يتنازلوا عن مستواهم وشخصياتهم أبداً، وألا يُخطئوا في الأسلوب؛ أجل، ينبغي أن تُدفع تلك النوعية من الهجمات والاعتداءات بما يليق بتصرف الإنسان المتحضر، وإلا فإنه لن ينفع الندم والبكاء فيما بعد.

كم تمنيتُ لو أمكن تحقيق إجماع عالمي في موضوع احترام المقدسات! وسعيتُ إلى أن أسمع صوتي في هذا الخصوص إلى بعض السلطات، لكن يبدو كأنني عجزت عن التعبير عن مرادي -في هذا الصدد- تعبيراً تاماً واضحاً.

إن حرية الفكر والتعبير مفاهيم مهمة يُعنى بها كثيراً في عالمنا المعاصر، لكن -وللأسف- في الوقت الذي يُعدّ تحقيق الأديان والعقائد

والمقدسات وسبُّها حرية فكر في رأي بعض الأوساط، لا تُعتبر هذه النوعية من الكلمات والبيانات القبيحة حرية فكر وتعبير بالنسبة للمجالات الأخرى، بل على العكس من ذلك إنها تُقبل على أنها جريمة حقد وكرامية، والواقع أن المؤمن الحقيقي ممثِّل الأمن والأمان على وجه البسيطة لا يتكلم كلاماً ضد أحد بغير حق، ولا ينوي التحقير والتزيف في أي وقت، بل ولا ينبغي له ذلك، غير أنه من الواضح تمامًا أن إطلاق العنان لحرية الفكر والتعبير في بعض المجالات والساحات، ومنعها في بعض المجالات الأخرى كيلٌ بمكيالين وانتكاسة خطيرة، وهذا يؤذي القلوب المؤمنة إيذاءً عميقاً.

والحاصل، أن ثمة حاجة ماسة اليوم إلى أن تمتلك الإنسانية كلها فكرة احترام المقدسات، وأن يُحفز هذا الشعور لدى الجميع من أجل الإنسانية، إذ ينبغي لمنظمات دولية تشارك فيها كل الأمم أن تُقيم هذه المسألة على أساس لا يحتمل التأويل، ويلزم أن تُوضع قواعد حاسمة فاصلة، ليت الإنسانية كلها تتفق في هذا الموضوع! ليت كل إنسان يعرف حدوده! لأن المسائل النابعة من هذه النوعية من البذاءات والاعتداءات في عالمنا المعاصر المتصاغر المتضائل سوف تُظهر نفسها في صورة مشاكل أكثر هولاً وأكبر حجمًا عند الإخلال بمبدأ احترام مقدسات الآخر، الذي هو أحد العناصر المهمة في العيش سوياً في سلام.